

لهروب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٣٤ -

مقالاته للرسالة (٥)

لم تكن قصة « بنت الباشا » هي آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ في هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقي عنده طائفة من الممانى والخواطر في موضوع الزواج والمرأة جاءت مبثورة في طائفة من المقالات من بمد ؛ ومنها مقالة (احذرى) وهي قصيدة من النثر الشعري مترجمة عن الملك ، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان في مقالة (لحوم البحر)

وكان الرافعي في هذه الفترة قد اسطنع مودة بينه وبين طائفة من الشباب اللاهين ، كانت تجتمعهم قهوة (لنوس) في طنطا للعبث والهو والمجانة ؛ فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجتمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم في شئون المرأة والزواج ؛ وقد تقدمت القول في بعض ما سبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعي كان سريع الالتفات إلى ممانى المرأة ، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ، حتى لتراه وهو يستمع إلى محادثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لاحديثا ؛ ثم يزّين له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما يسمع عالم يسمع ؛ فتراه كما ترى الفتى الراهق : يجيد حديث الفزل والحب حريقا في دمه وثورة في أعصابه لا حديثا في أذنيه . . . فيستزيد مما يسمع وهو صاغر ملذوذ ؛ فيحمل محادثه بذلك على الاطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ماني نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال . . .

١١ - ١٤

وعلى شدة احساس الرافعي بممانى (الجنس) إلى هذا الحد ، فإنه بإيمانه وخلفه وتديّنه واعتصامه بالوحدة ، كان قليل الخبرة ضئيل المعارف في هذا الباب : فكان له علم جديد في كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل ؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة ، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعي الذي يعرفه القراء .

من أحاديث هؤلاء الفتيان ، كان إليه وحى الممانى في قصيدة « احذرى » ؛ كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من الممانى وكثير من الموضوعات ؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

وكان الرافعي يختلف في طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان كان بينه وبينهم صداقة ومودة ؛ فكان يزورهم بين أهلهم ، فيكرمونه ويتسمون له ويحفظون به ؛ والرافعي يحدث لبين ظريف السامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه . وفي بيوت المتصرين من أهل لبنان عادات غير ما نعرف في بيوتنا ، فكان الرافعي يجد هناك جوّاً يوحى إليه ويعدّه بعلم جديد . . .

وأما لم أحبب الرافعي في طنطا إلى (زيارة مصرية) إلا فيما ندر ، على أني كثيراً ما كنت أصحبه في تلك الزيارات . . . وأعترف بأن الرافعي لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتراور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيراً ممن كان يزورهم يزورهم كمن يعرفن له ذلك فيبينن له أسبابه وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجال في مصر

وقد صحبتته مرة إلى زيارة أسرة الأناقة ق ، وهي فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألح عليّ ومثد إلحاحاً شديداً أن أصحبه ، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون

فصلاً أديباً ممتكاً يا شيخ سعيد ، تكون أنت مؤلفه وعلى أن أرويه ؛ لقد سئمتنا الخيال فالتسناك وسيلة إلى الحقيقة ... »
 وغازني حديث الرافعي أكثر مما غاظني القدي كان منه فتمردت عليه ، ولكن الرافعي عاد يضحك ويقول : « أترك — إن آيت — تستطيع أن تمنع نفسك الفكر فيها وأن تمنعها ؟
 لقد بدأت القصة فما بدت من أن تكون لها خاتمة ! »
 وضقت بهذه المطابة وبارت نفسي فأخشنت القول ؛ فزاد به الضحك وهو يقول : « وهذه الثورة أيضاً هي حادثة من فصول هذه الرواية ... »

وأعداني صرح الرافعي وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكت على غيظ ضاحك . ولقيت الفتاة بعدها مرتين فتناست ما كان ولم أسأل نفسي عن شيء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جادني الرافعي يوماً يقول : « إن بينك وبين صديقنا الأديب ج لشيئاً ؟ » قلت : « ماذا ؟ »
 قال : « أحسبه يفار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فانه يعلم أن بينكما عاطفة ... »
 وقال لي ع القدي سارت ابنته في حاري من بعد : « أترك كنت مع الرافعي أمس في زيارة فلانة ؟ » فتوجست من سؤاله شيئاً ...
 وكادت تكون قصة كما أراد الرافعي ولكنني حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

... من مثل هذه الحادثة كان يتمس الرافعي موضوعاته ويبدع معانيه في المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التي كان يصطنعها أو يسي إليها ويهيئ أسبابها ؛ كانت تنجلي له الفكرة ويومض الخاطر وتنشق الماني ؛ ومن هذا الجو زخرت نفسه بالمواطف النابضة التي ألهمته من بعد أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص الأجنبيّة ، وسمو الحب ، والله أكبر ، والجمامتان ، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يعلى عليه القصة والموضوع ، إنما كان يعده بالماني والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه ؛ فما تزال هذا

تسلية بريئة ومتاعاً من متاع أهل الفن وكنت في ذلك اليوم سانماً أغنية عامية في معنى من معاني الشباب تمير عن حال من حالي في تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافعي لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها وجعلها في جيبه ...
 ... وصحبت الرافعي إلى حيث يريد ، فاستقبلتنا الفتاة وأما وشاب من قرابتها ، ثم لم يكده يستقر بنا المجلس ، وأهل الدار حاقون بنا يبالون في إكرامنا ، حتى أخرج الرافعي الورقة من جيبه فدفعها إلى الفتاة ...
 وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردتها إلى الرافعي وهي تقول :
 « جميل ... شمر عاشق ! »

قال الرافعي وهو يشير إلى مبتسماً : « إنها أغنيته ! »
 قالت : « إيه ... أطشقت هو ! »
 قال الرافعي : « نعم ... ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! »
 ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتني الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعي إلى نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بي من الحياء أضعاف ما بالفتاة ... وكانت دعابة غير مألوفة ولا منتظرة ، أو قمتني في كثير من الحيرة والارتباك ...
 وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »
 وردد الشاب صدى صوتها يقول : « ... رقيقة ! »
 وثبت في مكاني لا أتحرك ، لا أرى أمامي غير تلك الابتسامة النامضة على شفقي الرافعي ...

ثم نهضت الفتاة إلى الفرقة الثانية وعادت بطبق الحلوى تقدمته إلى ؛ ثم إلى الرافعي ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبي ... وعاد الحديث ألواناً وأقنين بين الجماعة وأنا صامت في مجلسي لا أكاد أفهم ما يدور حولي من الحديث !
 وجعلت أسائل نفسي وأكاد أنشق غيظاً : « ترى ما ذا حمل الرافعي على هذا القول ... ؟ »

فلما انقض المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعي منضباً أسأله جلاء السر ، فضحك ملاءفه وهو يقول : « قصة طريفة ... » لقد عقدنا المقعدة فانظر في طريقة للحل ... سيكون

وأكثر ممانته في هذا الحديث تديم في نفسه ؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بستين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة القتطف

... وكما تتوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكائه إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافى بعد إملاء هذا المقال وناب إلى الطائفة والرضى ، وكانما نفث همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تنقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضميرين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطأنت نفسه إلى الحكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان يتأزعا من أهواء البشرية ...

ثم كان هلال رمضان فأنشأ مقالة « شهر للثورة » وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة
« سيدى بصر » محمد سعيد العياض

الخواطر والأفكار مضمرة في الرواية تزيد وتتوالد وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها ؛ فإذا تم بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة اتثالت عليه الماني اثنيلاً حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد

ولما قص الرافى قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله في الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل في الرسالة ، وما عاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمت به ، وأحس في نفسه شعوراً جديداً ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه في الفراش بما يحمل في صدره من هم وما يضيئ جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعت قوتان ... وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار في العمل ... وظال الحديث بينه وبين نفسه فأرقه ليلة ...

وتركته وروحت إلى دارى وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالي دعاني ليملى على « قلت لنفسى ... وقالت لى ... » من أراد أن يعرف الرافى العرفان الحق ، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة .

إن غاية ما ينشده الباحث عندما يهيم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمرة نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولكن ها هنا إنسانا يتحدث عن نفسه وتحدث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ

وأشهد أنى رأيته قبل أن يملى على الحديث وأن في وجهه لمانيه قبل أن يكون كلاماً ؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف : هذه هي هذه ، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة .

كتابات قيان

سيظهراره في أوامر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

للشاعر الخائف ألفريد دي موسيه

وكلاما ترجمة الأستاذ

فليكسى فارسى

من أرسل ٢٥ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقع داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد» ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب «رسالة المنبر إلى الشرق العربي» تاليف المترجم — المنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية